في ٢ تمّوز (يوليو) ٢٠١٥، حرم العلوم الطبيّة

اللّغة والثقافة الفرنسيّة هما مقرّي الثالث

منذ ما يقارب ستّين عامًا، أصبحت الفرنكفونيّة والثقافة واللّغة الفرنسيّة مقرّي الثالث، فالأوّل هو بيتي العائلي المرتبط بجمعيّة رفاق يسوع والثاني هو اللغة والثقافة العربيّتين، مكرّسًا نفسي في خدمة هذا البيت وتعزيز تعليم اللّغة الفرنسيّة والكثير من الموادّ العلميّة والأدبيّة باللغة الفرنسيّة. كوني أنتمي إلى عائلة بسيطة ناطقة باللّهجة اللّبنانيّة من جبل لبنان، تعلّمتُ في مدرسة صغيرة فرنكوفونيّة في الجبل أولى أسرار اللّغة الفرنسيّة التي سرعان ما أصبحت جزءًا من كياني الثقافيّ. في إكليركيّة يديرها الآباء اليسوعيّون في غزير حيث تابعتُ تحصيلي العلميّ المدرسيّ، أوّل مذاق لي للّغة الفرنسيّة أصبح إقبالاً دائمًا على المؤلّفين الفرنسيّين الكبار ومؤلّفاتهم. في تلك المدينة التي كانت المركز الثقافيّ الفرنسيّ الحقيقيّ حيث عاش الكاتب إرنست رينان Ernest Renan بضع سنوات وكتب فيها "حياة المسيح" في العام ١٨٦٣، أصبح هذا الإقبال شغفًا وبما أنّني أمتلك اللّغة العربيّة وأتقنها، تبيّن لي أنّني كنتُ قد اكتسبتُ طبيعتي الثانية بجعل لغة موليير Molière تتملّكني. لكن بالنسبة إليّ، كان للغة راسين Racine وقعٌ مؤثّر في نفسي بقوّة حجّته المنطقيّة والمؤثّرة.

وهكذا، أصبحتُ ناطقًا بلغتين وأتقنهما إن كتابةً أو شفهيًّا وكنت أشعر بالراحة حين أتكلّم باللّغة العربيّة الفصحى كما باللّغة الفرنسيّة، وهذا ما جعلني سعيدًا خلال حياتي العمليّة. إنّ عمليّة الترجمة من الفرنسيّة إلى العربيّة ومن العربيّة إلى الفرنسيّة تعني الإقامة على ضفّتين تجمعهما تلك الإرادة الحميمة وتلك القناعة الصادقة أنّ المستقبل هو للحوار بين الثقافات وخصوصًا بين الناس، وهذا الحوار هو قيمة تدعمها الفرنكوفونيّة. إنّها بناءٌ لجسرٍ بين ضفّتين صنعهما التاريخ لنحقّق معًا رسالة. لا تقتصر خدمتي للّغة الفرنسيّة على التكلّم باللّغة الفرنسية فحسب بل على نقل البعض من ماويّة هذه اللّغة إلى اللّغة

العربيّة وإلى لغاتٍ أخرى، علامة على حيويّتها وإشعاعها. لهذا السبب، لم أتردّد في متابعة التحصيل العلميّ في الدراسات العليا باللّغة الفرنسيّة، فقد قمتُ بدراستي في جامعة القدّيس يوسف في بيروت حتّى حصلتُ منها على إجازة في الفلسفة ومن ثمّ، في كليّتَي اللاهوت والفلسفة لليسوعيّين في باريس حتّى نلتُ منهما إجازة وماجستير، ثمّ في السوربون– بانتيون ١ حيث نلتُ فيها الدكتوراه في الآداب والفلسفة، وأخيرًا، في جامعة ستراسبورغ وفيها حزتُ على دكتوراه في العلوم التربويّة.

أن أكون في خدمة الثقافة الفرنسيّة عن طريق تأدية رسالة، هذا ما قمتُ به لفترة طويلة ببصيرة وبُعد نظر خلال ما يقارب حاليًّا أكثر من ٣٠ عامًا على مستوى التربية وكمربٍّ. قناعتي تكمن في أنّ الثقافة الفرنسيّة في لبنان هي واقعٌ إجتماعيّ متجذّر في التاريخ وغنىً لبنانيّ يجب علينا تعزيزه ولا يجب التخلّي عنه. وهكذا، تبوّأتُ منصب مدير خلال ٢٠ عامًا في المدرسة اليسوعيّة سيّدة الجمهور، وهي مؤسّسة تربويّة أقرّتها وزارة التربية في فرنسا كثانويّة فرنسيّة في الخارج، وهي معزّزة بعدد تلامذتها الذي يبلغ ٤٠٠٠ تلميذ، وكان منصبي هذا بمثابة تكريس من أجل إنجاز رسالة ثلاثيّة التوجّهات : رسالة مكرّسة لله من أجل زرع الفرح والسلام والمحبّة من حولي، ورسالة مكرّسة للبنان وقيمه المتعلّقة بالعيش المشترك وتنشئة رأسماله البشريّ والثقافيّ، أيّ رجال ونساء المستقبل، ورسالة مكرّسة للثقافة الفرنسيّة التي هي جزءٌ لا يتجزّأ من كياننا الإجتماعيّ والثقافيّ. واليوم، ومنذ ثلاثة أعوام على تبوّؤي منصب رئاسة جامعة القدّيس يوسف في بيروت، تستمرّ المغامرة وعلى مستوى أعلى، إلى جانب الشباب، للعمل على تعزيز اللّغة والثقافة الفرنسيّتين، نوعًا وكمًّا، بجعلهما يرتبطان بثقافتنا المحليّة والعربيّة.

اليوم، حين أتسلّم وسام الاستحقاق الوطني الفرنسيّ من الجمهوريّة الفرنسيّة، تختفي "الأنا" ليحلّ مكانها ذلك الكيان الجامعيّ الرائع ولا سيّما هيئة المعلّمين، أولئك الذين يستحقّون هذا الوسام وإليهم يعود في هذه السنة التي يحتفلون فيها بمرور ١٤٠ سنة على تأسيس الجامعة لا بل ١٤٠ سنة على وجود هذه الرسالة

التربويّة التي تحثّنا دومًا للمضي قُدُمًا كما في أوّل سنة من تاريخنا. باسمي وباسم جامعتنا،أشكر السيّد رئيس الحمهوريّة الفرنسيّة لأنّه منحنا هذا الشرف وهو أكثر من وسام، إنّه نداءٌ للإستمرار في رسالتنا التربويّة لنكون رسل اللّغة والثقافة الفرنسيّة، رسل سلام وعدالة وكرامة وثقة. فلنتعلّم أن نكون أصحاب رؤى من أجل تحقيق هذه الرسالة.